حتى لا يطمع فى مثله السفهاء وأن يظهر المعطى لما يعطيه وجها يقرن الاعطاء به وليغتنم المرء غناه وليأخذ من دنياه لآخرته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك

(من كتاب عين الادب والسياسة وزين المكسب والرئاسة)

(الباب الثالث فى الاخلاق)

أدب العلم

اعلم أن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب وأفضل ما طلب وجد فيه الطالب وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب لان شرفه يثمر لصاحبه وفضله ينمى لطالبه قال الله تعالى قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون فنفى المساواة بين العالم والجاهل لما قد خص به العالم من فضيلة العلم وقال تعالى وما يعقلها الا العالمون فنفى أن يكون غير العالم يعقل عنه أمرا أو يفهم منه زجرا وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال أوحى الى ابراهيم عليه السلام انى عليم أحب كل عليم وروى أبو أمامة قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين أحدهما عالم والآخر عابد فقال صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلا وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه الناس أبناء ما يحسنون وقال مصعب بن الزبير تعلم العلم فان يكن لك مال كان لك جمالا وان لم يكن لك مال كان لك مالا وقال عبد الملك بن مروان لبنيه يا بنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطا سدتم وان كنتم سوقة عشتم وقال بعض الحكماء العلم شرف لا قدر له والادب مال لا خوف عليه وقال بعض الادباء العلم أفضل خلف والعمل به أكمل شرف وقال بعض البلغاء تعلم العلم فانه يقومك ويسددك صغيرا ويقدمك ويسودك كبيرا ويصلح زيفك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك ويصحح همتك وأملك وقال على رضى الله تعالى عنه قيمة كل امرئ ما يحسن فاخذه الخليل فنظمه شعرا فقال

لا يكون العلى مثل الدنى * لا ولا ذو الذكاء مثل الغبى
قيمة المرء قدر ما يحسن المر * ء قضاء من الامام على

وليس يجهل فضل العلم الا أهل الجهل لان فضل العلم انما يعرف بالعلم وهذا أبلغ فى فضله لان فضله لا يعلم الا به فلما عدم الجهال العلم الذى به يتوصلون الى فضل العلم جهلوا فضله واستذلوا أهله وتوهموا أن ما تميل اليه نفوسهم من الاموال المقتناة والطرف المشتهاة أولى أن يكون اقبالهم عليها وأحرى أن يكون اشتغالهم بها وقد قال ابن المعتز فى منثوره الحكيم العالم يعرف الجاهل لانه كان

باهلا والجاهل لا يعرف العالم لانه لم يكن عالما وهذا صحيح ولاجله انصرفوا عن العلم وأهله انصراف الزاهدين وانحرفوا عنه وعنهم انحراف المعاندين لان من جهل شيأ عاداه وأنشدني بن لنكك لابي بكر بن دريد

جهلت فعاديت العلوم وأهلها * كذاك يعادى العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يرى متصدرا * ويكره لا أدرى أصيبت مقاتله

قيل لبزرجمهر العلم أفضل أم المال فقال بل العلم قيل فما بال نارى العلماء على أبواب الاغنياء لا نكاد نرى الاغنياء على أبواب العلماء فقال ذلك لمعرفة العلماء بمنفعة المال وجهل الاغنياء بفضل العلم وقيل لبعض الحكماء لم لا يجتمع العلم والمال فقال لعز الكمال فانشدت لبعض أهل هذا العصر

وفى الجهل قبل الموت موت لاهله * فاجسامهم قبل القبور قبور
وان امرأ لم يحى بالعلم ميت * فليس له حتى النشور نشور

وقف بعض المتعلمين بباب عالم ثم نادى تصدقوا علينا بما لا يتعب ضرسا ولا يسقم نفسا فاخرج له طعاما ونفقة فقال فاقتى الى كلامكم أشد من فاقتى الى طعامكم انى طالب هدى لا سائل ندى اذن له العالم وأفاده من كل ما سأل عنه فخرج جذلا فرحا وهو يقول علم أوضح لبسا خير من مال غنى نفسا واعلم أن كل العلوم شريفة ولكل علم منها فضيلة والاحاطة بجميعها محال قيل لبعض الحكماء من يعرف كل العلوم فقال كل الناس وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال من ظن ان للعلم غاية فقد بخسه حقه ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها حيث يقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وقال بعض العلماء لو كان طالب العلم لنبلغ غايته كما قد بدأ العلم بالنقيصة ولكان طالبه ينقص فى كل يوم من الجهل وتزداد فى كل يوم من العلم وقال بعض العلماء المتعمق فى العلم كالسابح فى البحر ليس يرى أرضا ولا يعرف طولا ولا عرضا وقيل لحماد الراوية أما تشبع من هذه العلوم قال استفرغنا فيها الجهود فلم نبلغ منها الحدود فنحن كما قال الشاعر * اذا قطعنا علما بدا علم * أنشد الرشيد عن المهدى بيتين وقال أظنهما له

يا نفس خوضى بحار العلم أو غوصى * فالناس ما بين معموم ومخصوص
لا شئ فى هذه الدنيا نحيط به * الا احاطة منقوص بمنقوص

اذا لم يكن الى معرفة جميع العلوم سبيل وجب صرف الاهتمام الى معرفة أهمها والعناية بأولاها أفضلها وأولى العلوم وأفضلها علم الدين لان الناس بمعرفته يرشدون وبجهله يضلون اذ لا يصح دين عبادة جهل فاعلها صفات آدائها ولم يعلم شروط اجزائها ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العلم خير من فضل العبادة وانما كان كذلك لان العلم يبعث على فضل العبادة

والعبادة مع خلوها عنها من العلم بها قد لا تكون عبادة فلزم علم الدين كل مكلف ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم طلب العلم فريضة على كل مسلم وفيه تأويلان أحدهما علم ما لا يسع جهله من العبادات والثاني جملة العلم اذا لم يقم بطلبه من فيه كفاية واذا كان علم الدين قد أوجب الله تعالى فرض بعضه على الاعيان وفرض جميعه على الكافة كان أولى مما لم يجب فرضه على الاعيان ولا على الكافة قال الله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون وروى عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فاذا هو بمجلسين أحدهما يذكرون الله تعالى والآخر يتفقهون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا المجلسين على خير وأحدهما أحب الي من صاحبه أما هؤلاء فيسألون الله تعالى ويذكرونه فان شاء أعطاهم وان شاء منعهم وأما المجلس الآخر فيتعلمون الفقه ويعلمون الجاهل وانما بعثت معلما وجلس الى أهل الفقه وروى مروان بن جناح عن يونس بن ميسرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال الخير عادة والشر لجاجة ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال خيار أمتي علماؤها وخيار علمائها فقهاؤها وروى معاذ ابن رفاعة عن ابراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وبين الشافعي رضي الله عنه فضيلة كل واحد منها فقال من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن تعلم الفقه نبل مقداره ومن كتب الحديث قويت حجته ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن تعلم العربية رق طبعه ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه واعمري ان صيانة النفس أصل الفضائل لان من أهمل صيانة نفسه ثقة بما منحه العلم من فضيلته ويوكلا على ما يلزم الناس من صيانته سلبوه فضيلة علمه ووسموه بقبيح تبذله فلم يف ما أعطاه العلم بما سلبه التبذل لان القبيح أنم من الجميل والرذيلة أشهر من الفضيلة لان الناس لما في طبائعهم من البغضة والحسد ونزاع المنافسة تنصرف عيونهم عن المحاسن الى المساوى فلا ينصفون محسنا ولا يحابون مسيئا لاسيما من كان بالعلم موسوما واليه منسوبا فان زلته لا تقال وهفوته لا تعذر اما القبيح أثرها واغترار كثير من الناس بها وقد قيل في منثور الحكم ان زلة العالم كالسفينة تغرق ويغرق معها خلق كثير وقيل لعيسى بن مريم عليه السلام من أشد الناس فتنة قال زلة العالم اذا زل زل بزلته عالم كثير وإما الان الجهال بذمه أغرى وعلى تنقصه أجرى ليسلبوه فضيلة التقدم ويمنعوه مباينة التخصيص عنادا لما جهلوه ومقتا لما بايتوه لان الجاهل يرى العلم تكلفا ولوما كما أن العالم يرى الجهل تخلفا وذما وأنشدت عن الربيع للشافعي رضي الله عنه

ومنزلة السفيه من الفقيه ✻ كمنزلة الفقيه من السفيه

فهذا زاهد فى قرب هذا * وهذا فيه أزهد منه فيه
اذا غلب الشقاء على سفيه * تقطع فى مخالفة الفقيه

وقال يحيى بن خالد لابنه عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو ما جهل وأنا أكره أن تكون عدو شئ من العلم وأنشد

تفقن وخذ من كل علم فانما * يفوق امرؤ فى كل فن له علم
فانت عدو للذى أنت جاهل * به ولعلم أنت تتقنه سلم

اذا صان ذو العلم نفسه حق صيانتها ولازم فعل ما يلزمها أمن تعيير الموالى وتنقيص المعادى يجمع الى فضيلة العلم جميل الصيانة وعز النزاهة فصار بالمنزلة التى يستحقها بفضائله وروى ابو الدرداء أن النبى صلى الله عليه وسلم قال العلماء ورثة الانبياء لان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما ورثوا العلم وروى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للانبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة وقال بعض البلغاء ان من الشريعة أن تجل أهل الشريعة ومن الصنيعة أن تزين حسن الصنيعة فينبغى لمن استدل بفطرته على استحسان الفضائل واستقباح الرذائل أن ينفى عن نفسه رذائل الجهل بفضائل العلم وغفلة الاهمال باستيقاظ المعاناة ويرغب فى العلم رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه ولا يلهيه عن طلبه كثرة مال وجده ولا نفوذ أمر وعلو منزلة فان من نفذ أمره فهو الى العلم أحوج ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق وروى أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الحكمة تزيد الشريف شرفا وترفع العبد المملوك حتى تجلسه مجالس الملوك وقد قال بعض الادباء كل عز لا يوطده علم مذله وكل علم لا يؤيده عقل مضله وقال بعض علماء السلف اذا أراد الله بالناس خيرا جعل العلم فى ملوكهم والملك فى علمائهم ربما امتنع الانسان من طلب العلم لكبر سنه واستحيائه من تقصيره فى صغره أن يتعلم فى كبره فرضى الجهل أن يكون موسوما به وآثره على العلم أن يصير مبتدئا به وهذا من خدع الجهل وغرور الكسل لان العلم اذا كان فضيلة فرغبة ذوى الاسنان فيه أولى والابتداء بالفضيلة فضيلة ولان يكون شيخا متعلما أولى من أن يكون شيخا جاهلا حكى أن بعض الحكماء رأى شيخا كبيرا يحب النظر فى العلم ويستحيى فقال له يا هذا أتستحى أن تكون فى آخر عمرك أفضل مما كنت فى أوله وذكر أن ابراهيم بن المهدى دخل على المأمون وعنده جماعة يتكلمون فى الفقه فقال يا عم ما عندك فيما يقول هؤلاء فقال يا أمير المؤمنين شغلونا فى الصغر واشتغلنا فى الكبر فقال لم لا تتعلمه اليوم قال أو يحسن مثلى طلب العلم قال نعم والله لان تموت طالبا للعلم خير من أن تعيش قانعا بالجهل قال والى متى يحسن طلب العلم قال ما حسنت بك الحياة ولان الصغير أعذر وان لم يكن فى الجهل عذر لانه لم تطل به

مدة التفريط ولا استمرت عليه أيام الاهمال وقد قيل في منثور الحكم جهل الصغير معذور وعلمه محقور فاما الكبير فالجهل به أقبح ونقصه عليه أفضح لان علو السن اذا لم يكسبه فضلا ولم يفده علما وكانت أيامه في الجهل ماضيه ومن الفضل خاليه كان الصغير أفضل منه لان الرجاء له أكثر والامل فيه أظهر وحسبك نقصا في رجل يكون الصغير المساوي له في الجهل أفضل منه وأنشدت لبعض أهل الادب

اذا لم يكن مر السنين مترجما * عن الفضل في الانسان سميته طفلا
وما تنفع الايام حين يعدها * ولم يستفد فيهن علما ولا فضلا
أرى الدهر من سوء التصرف مائلا * الى كل ذي جهل كأن به جهلا

وربما امتنع من طلب العلم لتعذر المادة وشغله اكتسابها عن التماس العلم وهذا وان كان أعذر من غيره مع أنه قلما يكون ذلك الا عند ذي شره وعيب وشهوة مستعبدة فينبغي أن يصرف الى العلم حظا من زمانه فليس كل الزمان زمان اكتساب ولا بد للمكتسب من أوقات استراحة وأيام عطلة ومن صرف كل نفسه الى الكسب حتى لم يترك لها فراغا الى غيره فهو من عبيد الدنيا وأسراء الحرص وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لكل شيء فترة فمن كانت فترته الى العلم فقد نجا وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كونوا علماء صالحين فان لم تكونوا علماء صالحين فجالسوا العلماء واسمعوا علما يدلكم على الهدى ويردكم عن الردى وقال بعض العلماء من أحب العلم أحاطت به فضائله وقال بعض الحكماء من صاحب العلماء وقر ومن جالس السفهاء حقر وربما منعه من طلب العلم ما يظنه من صعوبته وبعد غايته ويخشى من قلة ذهنه وبعد فطنته وهذا الظن اعتذار ذوي النقص وخيفة أهل العجز لان الاخبار قبل الاختبار جهل والخشية قبل الابتلاء عجز وقد قال الشاعر

لا تكونن للامور هيوبا * فالى خيبة يصير الهيوب

وقال رجل لابي هريرة رضي الله عنه أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال كفى بترك العلم اضاعة وليس وان تفاضلت الاذهان وتفاوتت الفطن ينبغي لمن قل منها حظه أن ييأس من نيل القليل وادراك اليسير الذي يخرج به من حد الجهالة الى أدنى مراتب التخصيص فان الماء مع لينه يؤثر في صم الصخور فكيف لا يؤثر العلم الزكي في نفس راغب شهي وطالب حلي لاسيما وطالب العلم معان قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب وربما منع ذا السفاهة من طلب العلم أن يصور في نفسه حرفة أهله وتضايق الامور مع الاشتغال به حتى يسمهم بالادبار ويتوسمهم بالحرمان فان رأى محبرة تطير منها وان رأى كتابا أعرض عنه

وان رأى متحليا بالعلم هرب منه كأنه لم ير عالما مقبلا وجاهلا مدبرا ولقد رأيت من هذه الطبقة جماعة ذوى منازل وأحوال كنت أخفى عنهم ما يعجبنى من محبرة وكتاب لئلا أكون عندهم مستثقلا وان كان البعد عنهم مؤنسا ومصلحا والقرب منهم موحشا ومفسدا فقد قال بزرجمهر الجهل فى القلب كالنزف فى الارض يفسد ما حوله لكن اتبعت فيهم الحديث المروى عن أبى الاشعث عن أبى عثمان عن ثوبان عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال خالطوا الناس باخلاقهم وخالفوهم فى أعمالهم ولذلك قال بعض البلغاء رب جهل وقيت به علما وسفه حميت به حلما وهذه الطبقة ممن لا يرجى لها صلاح ولا يؤمل لها فلاح لان من اعتقد أن العلم شين وان تركه زين وان للجهل اقبالا مجديا وللعلم ادبارا مكديا كان ضلاله مستحكما ورشاده مستبعدا وكان هو الخامس الهالك الذى قال فيه على بن أبى طالب رضى الله عنه أغدر عالما أو متعلما أو مستمعا أو محبا ولا تكن الخامس فتهلك وقد رواه خالد الحذاء عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن النبى صلى الله عليه وسلم مسندا وليس لمن هذه حاله فى العذل نفع ولا فى الاصلاح مطمع وقد قيل لبزرجمهر ما لكم لا تعاتبون الجهال فقال انا لا نكلف العمى أن يبصروا ولا الصم أن يسمعوا وهذه الطائفة التى تنفر من العلم هذا النفور وتعاند أهله هذا العناد ترى العقل بهذه المثابة وتنفر من العقلاء هذا النفور وتعتقد أن العاقل محارف وأن الاحمق محظوظ وناهيك بضلال من هذا اعتقاده فى العقل والعلم هل يكون ضلالا أو افضيلة موضعا وقد قال بعض البلغاء أخبث الناس المساوى بين المحاسن والمساوى وعلة هذا انهم ربما رأوا عاقلا غير محظوظ وعالما غير مرزوق فظنوا أن العلم والعقل هما السبب فى قلة حظه ورزقه وقد انصرفت عيونهم عن حرمان اكثر النوكى وادبار أكثر الجهال لان فى العقلاء والعلماء قلة وعليهم من فضلهم سمة ولذلك قيل العلماء غرباء لكثرة الجهال فاذا ظهرت سمة فضلهم وصادف ذلك قلة حظ بعضهم تنوهوا بالتميز واشتهروا بالتعيين فصاروا مقصودين باشارة المتعنتين ملحوظين بايماء الشامتين والجهال والحمق لما كثروا ولم يتخصصوا انصرفت عنهم النفوس فلم يلحظ المحروم منهم بطرف شامت ولا قصد المجدود منهم باشارة عائب فلذلك ظن الجاهل المرزوق ان الفقر والضيق مختص بالعلم والعقل دون الجهل والحمق ولو فتشت أحوال العلماء والعقلاء مع قلتهم لوجدت الاقبال فى أكثرهم ولو اختبرت أمور الجهال والحمق مع كثرتهم لوجدت الحرمان فى أكثرهم وانما يصير ذو الحال الواسعة منهم ملحوظا مشتهرا لان حظه عجيب واقباله مستغرب كما أن حرمان العاقل العالم غريب واقلاله عجيب ولم تزل الناس على سالف الدهور من ذلك متعجبين وبه معتبرين حتى قيل لبزرجمهر ما أعجب الاشياء فقال نجح الجاهل واكداء العاقل لكن الرزق بالحظ والجد لا بالعلم والعقل حكمة منه تعالى يدل بها على قدرته واجراء الامور على مشيئته وقد قالت الحكماء وجرت الاقسام على قدر العقول لم تعش البهائم فنظمه أبو تمام فقال

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل * ويكدى الفتى من دهره وهو عالم
ولو كانت الارزاق تجرى على الحجى * هلكن اذن من جهلهن البهائم

وقال كعب بن زهير بن أبي سلمى

لو كنت أعجب من شئ لأعجبنى * سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
يسعى الفتى لامور ليس يدركها * والنفس واحدة والهم منتشر

على أن العلم والعقل سعادة واقبال وان قل معهما المال وضاقت معهما الحال والجهل والحمق حرمان وادبار وان كثر معهما المال واتسعت فيهما الحال لان السعادة ليست بكثرة المال فكم من مكثر شقى ومقل سعيد وكيف يكون الجاهل الغنى سعيدا والجهل يضعه أم كيف يكون العالم الفقير شقيا والعلم يرفعه وقد قيل فى منثور الحكم كم من ذليل أعزه علمه ومن عزيز أذله جهله وقال عبد الله بن المعتز الجاهل كروضة على مزبلة وقال بعض الحكماء كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد قبحا وقال بعض العلماء لبنيه يا بنى تعلموا العلم فان لم تنالوا به من الدنيا حظا فلا أن يذم الزمان لكم أحب الى من أن يذم الزمان بكم وقال بعض الادباء من لم يفد بالعلم مالا كسب به جمالا وأنشد بعض أهل الادب لابن طباطبا

حسود مريض القلب يخفى أنينه * ويضحى كئيب البال عندى حزينه
يلوم على أن رحت للعلم طالبا * أجمع من عند الرواة فنونه
فاعرف أبكار الكلام وعونه * وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم ان العلم لا يكسب الغنى * ويحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمى دعنى أغالى بقيمتى * فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وأنا أستعيذ بالله من خدع الجهل المذله وبوادر الحمق المضله وأسأله السعادة بعقل رادع يستقيم به من زل وعلم نافع يستهدى به من ضل فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اذا استزل الله عبدا حظر عليه العلم فينبغى لمن زهد فى العلم أن يكون فيه راغبا ولمن رغب فيه أن يكون له طالبا ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرا ولمن استكثر منه أن يكون به عاملا ولا يطلب لتركه احتجاجا ولا للتقصير فيه عذرا وقد قال الشاعر

فلا تعذرانى فى الاساءة انه * شعار الرجال من يسئ فيعذر

ولا يسوف نفسه بالمواعيد الكاذبة ويمنيها بانقطاع الاشغال المتصلة فان لكل وقت شغلا ولكل زمان عذرا وقال الشاعر

نروح ونغدو لحاجاتنا * وحاجة من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجاته * وتبقى له حاجة ما بقى

(أدب النفس)

اعلم ان النفس مجبولة على شيم مهملة وأخلاق مرسلة لا يستغنى محمودها عن التأديب ولا يكتفى بالمرضى منها عن التهذيب لان لمحمودها اضدادا مقابلة يسعدها هوى مطاع وشهوة غالبة فان أغفل تأديبها تفويضا الى العقل أو توكلا على أن تنقادا الى الاحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين وأعقبه التوكل ندم الخائبين فصار من الادب عاطلا وفى صورة الجهل داخلا لان الادب مكتسب بالتجربة أو مستحسن بالعادة ولكل قوم مواضعة وذلك لا ينال بتوقيف العقل ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة ويستفاد بالدربة والمعاطاة ثم يكون العقل عليه قيما وزكى الطبع اليه مسلما ولو كان العقل مغنيا عن الادب لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين وبعقولهم مكتفين وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وقيل لعيسى بن مريم على نبينا وعليه الصلاة والسلام من أدبك قال ما أدبنى أحد ولكنى رأيت جهل الجاهل فجانبته وقال على بن أبي طالب رضى الله عنه ان الله تعالى جعل مكارم الاخلاق ومحاسنها وصلا بينه وبينكم فحسب الرجل أن يتصل من الله تعالى بخلق منها وقال أردشير بن بابك من فضيلة الادب انه ممدوح بكل لسان ومتزين به فى كل مكان وباق ذكره على أيام الزمان وقال مهبود شبه العالم الشريف العديم الادب بالبنيان الخراب الذى كلما علا سمكه كان أشد لوحشته وبالنهر اليابس الذى كلما كان أعرض وأعمق كان أشد لوعورته وبالارض الجيدة المعطلة التى كلما طال خرابها ازداد نباتها غير المنتفع به التفافا وصار للهوام مسكنا وقال ابن المقفع ما نحن الى ما نتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا الى الادب الذى هو لقاح عقولنا فان الحبة المدفونة فى الثرى لا تقدر أن تطلع زهرتها وانضارتها الا بالماء الذى يعود اليها من مستودعها وحكى الاصمعى رحمه الله تعالى أن اعرابيا قال لابنه يا بنى الادب دعامة أيدالله بها الالباب وحلية زين الله بها عواطل الاحساب فالعاقل لا يستغنى وان صحت غريزته عن الادب المخرج زهرته كما لا تستغنى الارض وان عذبت تربتها عن الماء المخرج ثمرتها وقال بعض الحكماء الادب صورة العقل فصور عقلك كيف شئت وقال آخر العقل بلا أدب كالشجر العاقر ومع الادب كالشجر المثمر وقيل الادب أحد النسبين وقال بعض البلغاء الفضل بالعقل والادب لا بالاصل والحسب لان من ساء أدبه ضاع نسبه ومن قل عقله ضل أصله وقال بعض الادباء ذلل قلبك بالادب كما تذكى النار بالحطب واتخذ الادب غنما والحرص عليه حظا يرتجيك راغب ويخاف صولتك راهب ويؤمل نفعك ويرجى عدلك وقال بعض العلماء الادب وسيلة الى كل فضيلة وذريعة الى كل شريعة وقال بعض الفصحاء الادب يسترقبيح النسب وقال بعض الشعراء فيه

فما خلق الله مثل العقول * ولا اكتسب الناس مثل الادب
وما كرم المرء الا التقى * ولا حسب المرء الا النسب
وفي العلم زين لاهل الحجا * وآفة ذي الحلم طيش الغضب

وأنشد الاصمعي رحمه الله

وان يك العقل مولودا فلست أرى * ذا العقل مستغنيا عن حادث الادب
اني رأيتهما كالماء مختلطا * بالترب تظهر منه زهرة العشب
وكل من أخطأته في مساوده * غريزة العقل حاكى البهم في الحسب

والتأديب يلزم من وجهين أحدهما ما لزم الوالد لولده في صغره والثاني ما لزم الانسان في نفسه عند نشوه وكبره فاما التأديب اللازم للاب فهو أن يأخذ ولده بمبادي الآداب ليأنس بها وينشو عليها فيسهل عليه قبولها عند الكبر لاستئناسه بمباديها في الصغر لان نشو الصغير على الشئ يجعله متطبعا به ومن أغفل في الصغر كان تأديبه في الكبر عسيرا وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ما نحل والد ولده نحلة أفضل من أدب حسن يفيده اياه أو جهل قبيح يكفه عنه ويمنعه منه وقال بعض الحكماء بادروا بتأديب الاطفال قبل تراكم الاشغال وتفرق البال وقال بعض الشعراء

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت * ولا يلين اذا قومته الخشب
قد ينفع الادب الاحداث في صغر * وليس ينفع عند الشيبة الادب

وقال آخر

ينشو الصغير على ما كان والده * ان الاصول عليها تنبت الشجر

وأما الادب اللازم للانسان عند نشوه وكبره فادبان أدب مواضعة واصطلاح وأدب رياضة واستصلاح فاما أدب المواضعة والاصطلاح فيؤخذ تقليدا على ما استقر عليه اصطلاح العقلاء واتفق عليه استحسان الادباء وليس لاصطلاحهم على وضعه تعليل مستنبط ولا لاتفاقهم على استحسانه دليل موجب كاصطلاحهم على مواضعات الخطاب واتفاقهم على هيآت اللباس حتى ان الانسان الآن اذا تجاوز ما اتفقوا عليه منها صار مجانبا للادب مستوجبا للذم لان فراق المألوف في العادة ومجانبة ما صار متفقا عليه بالمواضعة مفض الى استحقاق الذم بالعقل ما لم يكن لخالفته علة ظاهرة ومعنى حادث وقد كان جائزا في العقل أن يوضع ذلك على غير ما اتفقوا عليه فيرونه حسنا ويرون ما سواه قبيحا فصار هذا مشاركا لما وجب بالعقل من حيث توجه الذم على تاركه ومخالفاله من حيث انه كان جائزا في العقل أن يوضع على خلافه وأما أدب الرياضة والاستصلاح

فهو ما كان محمولا على حال لا يجوز في العقل أن يكون بخلافها ولا أن تختلف العقلاء في صلاحها وفسادها وما كان كذلك فتعليله بالعقل مستنبط ووضوح صحته بالدليل مرتبط وللنفس على ما يأتي من ذلك شاهد ألهمها الله تعالى ارشادا لها قال الله تعالى فألهمها فجورها وتقواها قال ابن عباس رضي الله عنه بين لها ما تأتي من الخير وتذر من الشر وسنذكر تعليل كل شيء في موضعه فانه أولى به وأحق فاول مقدمات أدب الرياضة والاستصلاح أن لا يسبق الى حسن الظن بنفسه فيخفى عنه مذموم شيمه ومساوى أخلاقه لان النفوس بالشهوات آمرة وعن الرشد زاجرة قال الله تعالى ان النفس لامارة بالسوء وقال صلى الله عليه وسلم أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك ثم أهلك ثم عيالك ودعت أعرابية لرجل فقالت كبت الله كل عدو لك الا نفسك فاخذه بعض الشعراء فقال

قلبي الى ما ضرني داعي * يكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي اذا * كان عدوي بين أضلاعي

فاذا كانت النفس كذلك فحسن الظن بها ذريعة الى تحكيمها وتحكيمها داع الى سلاطتها وفساد الاخلاق بها فاذا صرف حسن الظن عنها وتوسمها بما هي عليه من التسويف والمكر فاز بطاعتها وانحاز عن معصيتها وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه العاجز من عجز عن سياسة نفسه وقال بعض الحكماء من ساس نفسه ساد ناسه فاما سوء الظن بها فقد اختلف الناس فيه فمنهم من كرهه لما فيه من اتهام طاعتها وردمناصحتها فان النفس وان كان لها مكر يردى فلها نصح يهدى فلما كان حسن الظن بها يعمى عن محاسنها ومن عمى عن محاسن نفسه كان كمن عمى عن مساويها فلم ينف عنها قبيحا ولم يهد اليها حسنا وقد قال الجاحظ في كتاب البيان يجب أن يكون في التهمة لنفسه معتدلا وفي حسن الظن بها مقتصدا فانه ان تجاوز مقدار الحق في التهمة ظلمها فاودعها ذلة المظلومين وان تجاوز بها الحق في مقدار حسن الظن أودعها تهاون الآمنين ولكل ذلك مقدار من الشغل ولكل شغل مقدار من الوهن ولكل وهن مقدار من الجهل وقال الاحنف ابن قيس من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ومن هدم دينه كان لمجده أهدم وذهب قوم الى أن سوء الظن بها أبلغ في صلاحها وأوفر في اجتهادها لان للنفس جورا لا ينفك الا بالسخط عليها وغرورا لا ينكشف الا بالتهمة لها لانها محبوبة تجور ادلالا وتغر مكرا فان لم يسئ الظن بها غلب عليه جورها وقوي عليه غرورها فصار يسورها قانعا وبالشبهة من أفعالها راضيا وقد قالت الحكماء من رضي عن نفسه أسخط عليه الناس وقال كشاجم

لم أرض عن نفسي مخافة سخطها * ورضا الفتى عن نفسه اغضابها

ولو أنى عنها رضيت لقصرت * عما تريد بمثله آدابها
وتبينت آثار ذلك فاكثرت * عذلى عليه فطال فيه عتابها

وقد استحسن قول أبي تمام الطائى

ويسىء بالاحسان ظنا لا كمن * هو بابنه وبشعره مفتون

فلم يروا اساءة ظنه بالاحسان ذما ولا استقلال عمله لوما بل رأوا ذلك أبلغ فى الفضل وأبعث على الازدياد فاذا عرف من نفسه ما تجن وتصور منها ما تكن ولم يطاوعها فيما تحب اذا كان غيا ولا صرف عنها ما تكره اذا كان رشدا فقد ملكها بعد أن كان فى ملكها وغلبها بعد أن كان فى غلبها وقد روى أبو حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الشديد من غلب نفسه وقال عون بن عبد الله اذا عصتك نفسك فيما كرهت فلا تطعها فيما أحبت ولا يغرنك ثناء من جهل أمرك وقال بعض البلغاء من قوى على نفسه تناهى فى القوة ومن صبر عن شهوته بالغ فى المروة فحينئذ يأخذ نفسه عند معرفته ما أكنت وخبرة ما أجنت بتقويم عوجها واصلاح فاسدها وقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت يا رسول الله متى يعرف الانسان ربه قال اذا عرف نفسه ثم يراعى منها ما صلح واستقام من زيغ يحدث عن اغفال أو ميل يكون عن اهمال ليتم له الصلاح وتستديم له السعادة فان المغفل بعد المعانا ضائع والمهمل بعد المراعاة زائع
(من أدب الدنيا والدين)

(الباب الرابع فى المباحث الادبيه)

فى أن اللغة ملكة صناعية

اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هى ملكات فى اللسان للعبارة عن المعانى وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة فى تركيب الالفاظ المفردة للتعبير بها عن المعانى المقصودة ومراعاة التأليف الذى يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أى صفة راسخة فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليبهم فى مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبى استعمال المفردات فى معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد فى كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة